طريق الهلاك والقبور المفقودة

قصة واقعية تحاكي واقع

تحرير الموصل

ابراهيم المحجوب

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
٤٢٨ لسنة ٢٠١٩

من قصص الحرب

طريق الهلاك والقبور المفقودة

الإهداء

إلى كل الشهداء الأبرياء الذين سقطوا في معارك تحرير الموصل أثناء المعركة .إلى ارواحكم الطاهرة ودمائكم الزكية..
الى كل من فقد عزيزاً غالياًعلى قلبه .إلى كل أم وأب شهيد الى كل زوجة شهيد..
الى من فقد صديقه ... الى من لم يجد عائلته لحد الآن وهو يعرف أنها تحت الأنقاض.
اهدي هذه القصة ...

المؤلف ابراهيم المحجوب

المقدمة

القصة تمت كتابتها من واقع احداث معارك تحرير الموصل ولكن الاسماء والأحداث ربما غير التي موجودة على أرض الحقيقة .وربما اسماء مستعارة ولكنها قريبة على واقع القصة الحقيقية ومادار بها من أحداث ...وهنا أيضاً اردت إرسال رسالة للعالم أن مدينة الموصل قد تعرضت للدمار بسبب هذه الحرب التي فرضت على أهلها من قبل الأحداث والتناحرات الدولية..

وقد دفع أهل الموصل ثمناً باهظاً فقتل أبناءهم وشردت العوائل بعد أن هدمت المنازل .ولم يحرك المجتمع الدولي ساكن لحد الآن .مما دفع إلى الكثيرين منهم إلى الهجرة أو العيش في مخيمات النزوح التي تم تشييدها على أطراف المدينة ....والتي لاتحميهم برد الشتاء أو حرارة الصيف ....

فمتى ينتفض الضمير العالمي ويصحو من غفوته لإنقاذ مدينة الموصل التي يعود تاريخ بناءها الى قبل الميلاد وتم ذكرها في أغلب الكتب السماوية ...

ولهـــا حضـــارة عريقـــة وانـــزل الله بهـــا أكثـــر مـــن نبـــي هدايـــة للبشـــرية فهـــي مدينـــة النبـــي يـــونس صـــاحب الحـــوت ومدينـــة النبـــي شـــيت وغيـــرهم .. وهـــي مدينـــة التعـــايش الســـلمي فـــي العـــراق .. ســـاكنها مـــن كـــل الطوائـــف والأديـــان وتضـــم كبـــرى الكنـــائس فـــي الشـــرق الأوســـط إضـــافة إلـــى أعـــداد كبيـــرة مـــن الجوامع والمساجد وأضرحة للأئمة والصالحين.

.....

الكاتب ابراهيم المحجوب

طريق الهلاك والقبور المفقودة

بقلم ابراهيم المحجوب

كان اهالي المدينة يعيشون في فوضى عارمة يسيطر عليهم الرعب والخوف من المجهول ينتظرون ساعة وصول الجيش إلى مدينتهم لإنقاذهم من الوضع المأساوي الذين يعيشونه .فالجوع والعطش وشبح الموت وصوت الانفجارات أصبحت ملازمةً لهم ويخيم القتل في شوارعهم فبين ساعة وساعة يأتي خبر مقتل شخص في هذه الشوارع التي أصبحت كئيبة يسودها الظلام الدامس في ظل انقطاع تام للكهرباء وانعدام كل وسائل الإضاءة .كان ليلهم طويل وهم يسمعون سقوط القنابل والصواريخ على مدينتهم ولم يكن نهارهم افضل من ليلهم فشبح الموت موجود في كل مكان وكل لحظة يتمنى الأب أن يموت قبل أولاده حتى لا يرى مقتل أحدهم وتتمنى الأم هي الأخرى نفس الأمنية.

كانت أغلب العوائل مجتمعة بعضها مع البعض بسبب تعرض بعض مناطقهم الى القصف الشديد وإفتقار بعض هذه العوائل الى المؤن الغذائية .واهالي مدينة الموصل مشهورين بخزن المواد الغذائية في غرفة خاصة تسمى ((العلية)) وهي عبارة عن مخزن صغير داخل دورهم يجمعون بها المؤن لفصل الشتاء حيث تقوم أغلب العوائل الموصلية عند موسم الحصاد بخزن مادة الحنطة وتصنيع

قسم منها كمواد غذائية إضافة لمادة الطحين .كانت ايام صعبة جدا ...

كانت هناك عائلة تعيش في أحد الاحياء وسط المدينة تدعى عائلة الاستاذ توفيق وأغلب العوائل في ذلك الحي تركت منازلها بسبب بعدها عن طرف المدينة كون عمليات التحرير بدأت من أطراف المدينة الجنوبية .وكانت عائلة الاستاذ توفيق مكونة من زوجته الست نادية وأطفاله التوأم طارق وتيسير وكان الاستاذ توفيق وزوجته يعملان معلمين للدراسة الابتدائية في إحدى مدارس المدينة ويعيشان حياة هادئة ومستقرة لولا لعنة الحروب في هذه البلاد.

لم يمض أربعة سنين على شراءهم هذه الدار التي يسكنونها كعائلة مستقلة حيث كانوا يسكنون منطقة ثانية في المدينة القديمة قريبة من منزل أهل الاستاذ توفيق في منزل قديم يدفعون بدل الايجار الشهري لصاحبه الحاج يونس الذي يملك عدة منازل هناك تبلغ مساحة الدار الواحدة خمسين متر مربع .وتعاني تلك المناطق من زخم سكاني وشوارع ضيقة بنيت على شكل أزقة وقناطر متصلة بعضها بالآخر وقد بنيت اغلب بيوت المدينة القديمة منذ نهاية القرن التاسع عشر. واستمرت الى يومنا هذا ولكن القصف الشديد في هذه الحروب والمعارك التي دارت هناك اسقطت اغلب هذه المنازل وأصبحت مدينة أشباح خالية من السكان.

جلس الاستاذ توفيق في أحدى الغرف في منزله وعادت به الذكريات الى الماضي القريب وكيف كان يدرس في منطقة تسمى الميدان وكان يمر يومياً من جانب محل عمو خضر البقال .الذي يبيع الحلويات للأطفال والعاب بإشكالها المختلفة وتكون عادةً مصنوعة من مادة البلاستك وكان في منطقته ورش ومحلات للنجارين الذين يصنعون الأسرة والحاجات المنزلية الأخرى .تذكر وهو يواصل الدراسة في المرحلة المتوسطة في منطقة النبي جرجيس وكيف يقطع كل هذه المسافة بين الأزقة القديمة وكيف كان يتعامل المعلمين معهم وهم يعلمونهم المناهج العلمية كافة تذكر الاستاذ كامل النعيمي مدرس اللغة العربية والذي كان يكتب الشعر العربي الحديث والاستاذ عبدالغني مدرس الفيزياء والاستاذ احمد الديري مدرس اللغة الانجليزية وغيرهم من الأساتذة الكفوئين..

عادته الذكريات الى زمن معهد اعداد المعلمين وهو يكمل مشواره المتوسطي بخمسة سنوات دراسية ليحصل بعدها على شهادة الدبلوم في مجال التعليم .

وكيف تم تعيينه بوظيفته كمعلم ابتدائي ليلتحق في حينها بأحدي مدارس القرى والأرياف في جنوب الموصل وكان نصيبه في التعيين مدرسة اصفية الاولى والتي تبعد عن مدينة الموصل حوالي أربعين كيلومتر وتبعد عن الشارع العام الرابط بين المدينة ونواحي وقرى جنوب الموصل حوالي كيلومتر واحد وكيف قضى أيامه هناك مع طيبة اهل القرية والاحترام المتبادل بين الطالب

والمعلم. وكيف كان أهل القرية يجمعون أموال تبرعات لمساعدة المعلمين والمعلمات عندما كانت رواتبهم لا تكفي أجرة نقل لهم .وكيف تعارف على زوجته الست نادية أم طارق عندما كانت معلمة في مدرسة البنات في نفس القرية واحبها وتم مفاتحة أهلها فتزوجها في إحدى العطل الصيفية ولكن الله لم يتمم فرحته في حينها حيث لم يرزقهم الله بالذرية الا بعد مرور أكثر عشرين سنه وبعد التطور العلمي الذي حصل في مجال الطب. بعدها ارزقه الله بتوأم من الاولاد هم طارق وتيسير. وهم الآن مسرته في هذه الحياة فالبنون زينة الحياة الدنيا طارق اكبر من تيسير بربع ساعة تقريباً وهم ثمرة نجاح هذه الأسرة بعد ما حاول الأهل بنصيحة السيد توفيق بالزواج من امرأة ثانية كون الست نادية غير قادرة على الإنجاب ولكن مشيئة الله كانت هي الأقوى فبعد ما يقارب خمسة وعشرين سنة ارزقهم الله بالذرية ..

بالمقابل كانت الست نادية تعود بها الذكريات القديمة إلى طفولتها وأيام الدراسة الابتدائية في أحد ألمدارس للبنات وسط الموصل في منطقة النبي شيت ذكريات الماضي الجميل ومدن الالعاب في مناسبات الأعياد في ساحات منطقة باب جديد القريبة من محلتهم التي كانت تعتبر مدينة الألعاب الوحيدة في ذلك الزمان .كان العيد له طعم خاص ومرجوحات العم متي الجار الوفي لهم وهو من الإخوة المسيحيين ولكنه هو وعائلته المكونة من زوجته أم بطرس وبناته فاتن وعفاف يشاركون في كل مناسبات المسلمين في مدينة الموصل. ومن ضمن

الالعاب أيضاً كانت عربة محمود الحمال التي تنقل الاطفال من شارع الدواسة التجاري إلى منطقة باب الجديد ..وتجمعات الاطفال التي تضم الأهل والأصدقاء والجيران ابناء تلك المناطق السكنية...وهم يفرحون بمناسبة الأعياد الدينية.

وبعدها عندما انتقلت لدراستها المتوسطة ثم معهد اعداد المعلمات ومدة الدراسة كانت فيه خمسة سنوات تخرجت بعدها معلمة في مادة الرياضيات وكانت هي الأولى على دفعتها وتم تعينها ايضا بنفس القرية التي تم تعيين الأستاذ توفيق وهناك تم التعارف وتقدم لخطبتها وأصبحت زوجته وشريكة لحياته ....وبعد ان انتهت لحظة الذكريات فكر الاستاذ توفيق والست نادية بنجاة عائلتهما كون الدمار والقصف سوف يطولهم وعليه لابد أن يجد طريقة ينقذ بها عائلته فاستشار زوجته ام طارق بالموضوع وكيفية الهروب من المدينة. وفجأةً عرضت عليه فكرة الذهاب الى منزل إحدى صديقاتها في أطراف المدينة وهي معلمة معها في مدرسة سابقة ولكنها لم تراها منذ أكثر من سنتين بسبب الأوضاع الأمنية في المدينة .اقتنع السيد توفيق وقرر أن يذهبان في اليوم التالي الى دار السيدة رمزية صديقة زوجته ام طارق بحجة زيارتهم والاطمئنان عليهم ولم يعرفوا أن السيدة رمزية وعائلتها غادرو المدينة منذ ستة أشهر وهم الان يعيشون في إحدى محافظات اقليم كردستان القريبة من

مدينة الموصل والتي تبعد حوالي ثمانون كيلومتر شرق المدينة.

حمل السيد توفيق حقائبه ووضعها بسيارته الحديثة التي استلمها هي الأخرى قبل ثلاث سنوات ومازال يدفع الأقساط لتسديد ثمنها حيث تم شراؤها من إحدى الشركات وبضمانة راتبه كموظف في الدولة وكفالة أحد زملائه في الوظيفة وحسب المتعامل به في نظام تلك الشركات.

ركبوا السيارة فصعدت ام طارق بجانبه في المقعد الأمامي وصعد الاطفال طارق وتيسير في المقعد الخلفي وقد تم تعليم الاطفال على الإجابة السريعة عند السؤال اين تذهبون تكون اجابتهم سوف نزور صديقة ماما في منطقة تل الرمان الواقعة في أطراف مدينة الموصل حتى لا يثيرون الشبه منحولهم ويمنعونهم من هذه الزيارة لان الوضع أصبح يزداد صعوبة وخطورة في نفس الوقت.

سارت السيارة وهي تقطع المسافة بخطى بطيئة جدا لكثر العوائق والسيطرات ولكونهم عائلة صغيرة ولايوجد معهم راكب من جيل الشباب كانت الأمور تسير طبيعية جداً..ولكن الطريق أصبح طويل فأغلب الطرق مغلقة وبحاجة إلى أن تسير مسافة طويلة حتى تصل إلى الطريق المطلوب.

في هذه الأثناء نادى المؤذن آذان الظهر ونظام المدينة يكون فيها الصلاة إجبارية فنزل السيد توفيق الى المسجد

ليؤدي الصلاة وترك عائلته في السيارة .وأثناء فترة الصلاة حدث انفجار قوي جداً قرب المسجد حيث تم قصف أحد المنازل المملوءة بالمتفجرات وسط الدور السكنية ارتبك المصلون فانهو صلاتهم وتحركوا يهرعون باتجاه مكان الانفجار أما السيد توفيق فأصبح عاجز على السير لتفكيره بعائلته التي تركها في الخارج نظر من بعيد فوجد سيارته بدون أصابة بأي أذى فحمد الله عندما اقترب وجد صراخ اطفاله من هول التفجير وخوفهم على ابيهم في المسجد وهم يحملون براءة الطفولة التي انحرم منها كل اطفال مدينة الموصل .تكلم مع زوجته وهو يدير محرك السيارة وانطلق مسرعاً بعيداًعن مكان الانفجار وهو يشاهد الناس تخلي القتلى والجرحى بعد سقوط المنازل فوقهم بسبب هذا التفجير.

يااالله انقذنا يارب العالمين انها الحرب لقد فتحت أبواب الجحيم .بدأت الحياة اصعب كلما دنت ساعات التحرير حيث القصف الكثيف وقطع الشوارع الرئيسية بإحداث فجوات كبيرة

جدا حتى تقطع الإمدادات عن العدو وهذا مايعرقل سير العجلات كافة .

كان الخراب واضح على معالم المدينة وكان الاستاذ توفيق يسير في تلك الشوارع وكأنه يرى فلم هوليوودي حقيقي .وأخيراً وصل إلى أطراف تلك المحلة التي لم يصلونها من قبل رغم أنها لا تبعد كثيراً عن الحي الذي يسكنون به .نظر إلى الأسواق كلها فارغة وعندما وصل

إلى الشارع الذي تسكنه السيدة رمزية صديقة زوجته ام طارق أراد أن يسأل عنها ولكنه لا يعرف من هو صاحب البيت وسوف يسبب بعض الاحراج لنفسه ولكنه في وضع لا يتحمل الانتظار.

فرأى بعض الصبية في نفس الشارع فسالهم من يعرف الست رمزية معلمة في احدى مدارس هذه المنطقة فتفاجأ بالجواب بأن الجميع قد سكنوا حديثاً هنا ولايعرفون أصحاب المنطقة الأصليين وعند سؤاله عن السبب لم يجد جواب مقنع لان الخوف عند الناس جعلهم يخفون الحقيقة أشار إليه أحد الصبية الى محل لبيع المواد الغذائية في الفرع الثاني من الحي وربما لديه إجابة عن سؤاله

وفعلاً توجه إلى ذلك المحل فوجد رجلًا كبيراً في السن ومحل فارغ من كل شيء بادره بالتحية وقال له ياعم لدي سؤال واتمنى أن يكون الجواب موجود عندك فرحب به الرجل وعرفه بنفسه وكان يكنى الحاج عبدالله وأنه من سكان المنطقة القدماء ففرح الاستاذ توفيق بذلك وشعر أنه وصل إلى غايته.

بادره بالسؤال بأن لديه اقرباء هنا معلمة تدعى الست رمزية وأنهم أتو لزيارتها .عرف الحاج عبدالله الموضوع من عنوان السؤال وان عائلة الاستاذ توفيق تريد الهروب الى القطعات العسكرية .فابتسم في وجه الاستاذ توفيق وقال له لقد وصلت فهذا الدار الذي خلف

بيتنا هو منزل الست رمزية وانا عمها والد زوجها وان الست رمزية يا ابني قد رحلت منذ فترة وحالفها الحظ في الهروب والان تعيش في مدينة أربيل هي وعائلتي جميعاً ولم يبقى احد الا انا فانا كبير السن ولا أستطيع المشي مسافات طويلة ففضلت ذهابهم لكي انقذهم من هذه الحرب هم وأطفالهم فالموت ياولدي أصبح قريب جداً منا ويوميا تحصد الحرب أرواح الآلاف من الأبرياء .

الحرب يا استاذ توفيق ناراً مشتعلة رمادها الاخضر واليابس. ونحمد الله اننا مازلنا احياء.وعلى كل حال تفضلوا فالبيوت مفتوحة أمامكم لان اغلب أهلها قد هربوا اوقتلو أو تم ترحيلهم إلى أحياء أخرى وأن أغلب الموجودين ينتظرون فرصة الهروب أو وصول القوات الأمنية لتحريرهم .ولكن ياولدي اذا كان قراركم الهروب من هذه المدينة فيجب أن تأخذوا حذركم الشديد فالعدو لديه عيون مفتوحة في كل مكان ومجرد يعرفون نيتكم المحاولة من أجل الهروب منهم فسوف يقومون بقتلكم جميعاً...

ولقد ذهب العشرات قبلكم ضحايا لهكذا محاولات .سأل الاستاذ توفيق العم عبدالله عن المسافة بينهم وبين القطعات العسكرية الحكومية فأجابه ربما سبعة كيلومترات أو أكثر بقليل .

- كل ما عليك اخفاء سيارتك وعائلتك في منزل ابني وأخذ الحيطة والحذر الشديد وسوف اجهزكم

بـبعض المـواد الغذائيـة الموجـودة عنـدي لسـد رمـق العـيش وربمـا تبقـون فتـرة طويلـة فالاقتصـاد فـي المـاء والغـذاء مطلـوب .وأدعـو الله أن يحفظكـم فـأنتم ضـيوفي الآن .شـكره السـيد توفيـق وزوجتـه ام طـارق علـى هكـذا اسـتقبال وشـعرت السـيدة أم طـارق وكـأن صـديقتها المعلمـة السـت رمزيـة موجـودة ذهـب معهـم العـم عبـدالله وفـتح لهـم ابـواب منـزل ابنـه زوج السـت رمزيـة فوجـدوا اثـاث الـدار كاملـة وموجـود فيهـا بعـض المـاء وبعـض قنـاني الـدواء المسـكن للأطفـال وعنـدما نظـر الحـاج عبـدالله الـى الـدواء قـال لهـم حـافظو عليـه ربمـا تحتاجونـه فهـذا الـدواء منـوم للأطفـال حتـى لايسـتطيع العـدو سـماع أصـواتهم عنـدما يكـون هنـاك أي انفجـار. أمـا سـيارتكم فسـوف تبقـى فـي داري كونهـا اكثـر أمانـا مـن هنـا وسـوف يكـون الاتصـال بيننـا مـن خـلال هـذه الفتحـة وأشـار إلـى بـاب صـغير موجـود فـي خلفيـة الـدار مـن الـداخل يسـتطيعون اهـل البيـت التنقـل منـه إلـى الجهـة الأخـرى كـان يسـتخدمونه عائلـة الحـاج عبـدالله مـع منـزل ابـنهم وخاصـةً فـي الليـل فبـدل مـن الـذهاب عشـرات الأمتـار مـن السـياج الخـارجي يصـبح التنقـل سهلا بينهم وخاصة النساء والأطفال .

ودع الحـاج عبـدالله ضـيوفه بعـد أن اسـتقروا فـي منـزل ابنـه احمـد زوج السـت رمزيـة ام عبـدالله وأبلغهـم اذا احتـاجوا لأي شـيء فبإمكـانهم الطـرق علـى هـذا البـاب الموجـودة

بينهم وسوف يكون عندهم .وأبلغهم بعدم فتح الباب الخارجي لأي شخص كان لان الأوضاع سيئة جداً .

في هذه الظروف المحيطة بالمدينة وما تواجه سكانها من تحديات حياة أو موت .ساعات وربما أيام سوف تدق طبول الحرب في الجانب الأيمن للمدينة ..كل هذه الظروف جعلت من الأستاذ توفيق نسيان عائلة أهله الكبيرة نتيجة حرصه وخوفه والظرف الصعب الذي مرت به عائلته الخاصة .ولايعرف مصيرهم المجهول ولكن الذكريات الجميلة عادت به إلى تلك الأيام التي نشأ فيها في تلك الأسرة الكبيرة .. تذكر أخواته ذكرى وليلى وسعدية وإخوانه صادق وسعد وشكري وطفولتهم تذكر ابتسامة ذلك الاب الصالح وهو يعمل بائعاً للسوس في محلات الموصل القديمة .يحمل معه شراب السوس المنتج من جذور الاعشاب الطبيعية ممزوجاً بالثلج ليصبح عصيراً رائعاً يتذوقه ويعرف طعمه كل أهالي الموصل .يجوب شوارع المدينة يومياً بائعاً لهذا العصير ..ليعود مساءاً إلى داره وهو يحمل معه ما كسبه من رزق الى عائلته لسد قوتهم اليومي .وكانت تساعده في أغلب عمله وشراء الحاجيات من السوق والدة الأستاذ توفيق تلك الأم المثالية في كل شيء .لقد كانت أم توفيق من عائلة مباركة يقصدها الناس لقراءة الآيات القرآنية الكريمة على مرضاهم ليشفيهم الله بعد ذلك من أمراض معينة وكانت تفعل كل ذلك ابتغاء مرضاة الله وبدون اي أجور .وكانت تطعم الضيف والجار من اي طعام تصنعه في بيتها فقد كانت ربة أسرة

ناجحة ومطبخها عامر بأغلب الاكلات الشعبية في مدينة الموصل وحسب المستطاع....
تذكر الأستاذ توفيق المخللات الموصلية التي كانت تعملها والدته من طرشي وزيتون محشي ومن الباسطرمة الشتوية وهي تحمل رائحة الثوم والبهارات والتي كانت موجودة في مطابخ أغلب العوائل الموصلية ....

بدأ تفكير الاستاذ توفيق وزوجته عن كيفية الهروب والوصول إلى القطعات العسكرية وبدأت ملامته لزوجته عن التأخير وكيف استطاعت صديقتها الست رمزية وعائلتها الهروب مبكراً وكان المفروض أن تتصل بها باستمرار وتعرف كل ما هو جديد عن الطريق وكيفية العبور.

كانت وسائل الاتصالات في هذه المرحلة الزمنية ممنوعة منعاً نهائيا ومن يحمل جهاز الموبايل تصل عقوبته الى القتل فلقد كان يعتبرونه متعاوناًمع الأجهزة الأمنية التابعة للحكومة العراقية .

نظر ابوطارق السيد توفيق من خلف الباب الى الفضاء الخارجي الموجود أمام منزله فلم يرى سوى منطقة حل عليها الظلام ولايوجد فيها اي شخص سواء عابر سبيل أو من القطعات العسكرية اومن قطعات العدو فعاد إلى زوجته وهي تحاول ايجاد فراش من أثاث البيت الذي تسكنه وهو منزل صديقتها الست رمزية لكي ينام اولادها

التوأم طارق وتيسير بعد التعب وعناء السفر الذي لاقوه هذا اليوم.

أشار الاستاذ توفيق على زوجته بأن يخططون للهروب صباح الغد وعندما يحل الظلام ينطلقون بالإتجاه الذي تتواجد فيه القطعات العسكرية .أبدت له موافقتها بالموضوع ولكن لابد من استشارة الحاج عبدالله فهو رجل طيب وكرمه وضيافته سوف تبقى دَيناً في رقابهم ولن ينسوه أبداً.

كان الليل في تلك الليلة طويل جداً ولم يستطيعوا أن ينامو ولو للحظة واحدة فالخوف وصوت سماع دوي الانفجارات يجعل الإنسان ينسى كل شيء فمهما كان النوم سلطان وعزيز ومهما كان الجوع قاسي إلا أن الخوف ينسيك هذه الأشياء.

بدأ الليل بدوي انفجار قريب من المنزل الذين سكنوا به وبعدها بدأ هدوء رهيب ومرعب حيث انقطعت كل الأصوات .مضى من الليل نصفه وبدأ الاستاذ توفيق يسمع اصوات بشرية لرجال ونساء ولكنه لا يعرف مصدرها وبما أن الحاج عبدالله اوصاهم أن لايفتحو باب الدار لأي شخص فتناسى الموضوع .وتكرر على مسامعه اصوات عوائل تسير أمام منزله وقبل زوال الليل وانفلاق الصباح انقطعت تلك الأصوات نهائيا وعند الشروق طرق الباب الخلفي المتصل الحاج عبدالله ووجد السيد توفيق وزوجته مثلما تركهم في الليلة الماضية

وابلغوه بأنهم لم يستطيعوا النوم ولو للحظة واحدة وأبلغوه أيضاً انهم سمعوا اصوات عوائل تسير أمام المنزل طوال الليل فهز رأسه وأبلغهم انها عوائل هاربة تأتي من كل أنحاء المدينة وتسير باتجاه القطعات العسكرية وان الطريق الوحيد هو هذا الطريق فأشار بيده إلى اتجاه مقابل دار ابنه الى أرض مفتوحه .عرف حينها السيد توفيق وزوجته أنهما الان على خط الصد بين المدينة والقطعات العسكرية .

فقال السيد توفيق مخاطباً العم عبدالله اليوم يومنا ياعم فأدعو لنا سوف نودعك مساء هذه الليلة ونغادر باتجاه القطعات العسكرية فإن حالفنا الحظ وانقذنا أنفسنا فسوف يأتي اليوم الذي نلتقي به بك ونبقى على تواصل مع عائلتك الموجودة خارج المدينة...هنا نزلت دمعة الحاج عبدالله وهو يتذكر عائلته وأبناءه وبناته وأحفاده وخاصةً حفيده عبدالله الذي سموه على إسمه وكان متعلق به جداً ولإنقطاع الاتصالات بينهم لايعرفون عنه أي خبر وكل معلوماته هو بأنهم في امان الله في مدينة أربيل ..كان الأفراد والعساكر الموجودة في المدينة يتمركزون فوق السطوح أو في المنازل بين المواطنين خوفاًمن قصف الطائرات الحربية. كان السيد توفيق ينظر إلى زوجته نظرة غريبة في هذا الصباح ويجاملها ببعض الكلمات حتى يبعد عنها شبح الخوف ولكن في داخله شيء آخر يعصر قلبه ألماً ولايعرف ما هذا الشيء .مرت ساعات النهار ببط شديد وخوف من المجهول.

وبدأت الشمس بالرحيل وكان هو وزوجته ينتظرون الليل بترقب شديد وكأنهم سوف يخوضون معركة لا يعرفون عن تفاصيلها شيء ..معركة تحصد أرواح المدنيين العزل ولاتميز بين المدجج بالسلاح والمدني الأعزل نعم انها قذارة الحرب حين تكون الاطفال والنساء والشيوخ والناس الأبرياء العزل وقوداً لها .

وبعد حلول الظلام وتحديداً الساعة الحادية عشرة من مساء ذلك اليوم الأغبر في حياة ابو طارق وعائلته ودع الحاج عبدالله ضيوفه ابوطارق وعائلته الى مصير مجهول لا يعلمه الا الله وفي ظلام الليل سار بعائلته الى المجهول وأثناء سيره بهذا الطريق البري وجد قسم من العوائل قاصدة نفس الاتجاه الذي يقصده السيد توفيق وأصبح لدى الجميع العزيمة بتشجيع بعضهم البعض سارو مسافة من الطريق في منطقة بين حي تل الرمان واطراف حي المأمون الحي الذي يعتبر آخر حي في اطراف الموصل حتى وصلوا الى المجمع السكني المسمى عين العراق هذا المجمع قبل عام ٢٠١٤ كان معروض الاستثمار من قبل إحدى الشركات ولكن الحرب أوقفت كل شيء وهدمت الجزء الأكبر منه .

أرادوا الاستراحة قليلاً هناك ولكن لهفة الوصول إلى القطعات العسكرية باتت اكبر من التعب ومواصلة السير أصبحت ضرورية جداً وخاصة قبل الشروق وهم يسيرون مكشوفون في العراء .ولم يعرف الجميع وهم خمسة عوائل تقريباً أن الموت أصبح قريب جداً منهم .

تقدموا خطوات عن المجمع السكني ليتفاجؤ بوجود قناصين فوق أحد سطوح المباني في هذا المجمع وهم يحصدون أرواح تلك العوائل .وكانت أول رصاصة من احد القناصين تخترق جسد أم طارق الطاهر جسد هذه المربية الفاضلة التي خرجت الأجيال من الطلاب لخدمة هذا الوطن ولم تعرف اننا في بلاد لا يحترم العلم ولا العلماء بل لا يعرف اي معنى للإنسانية

سقطت على الأرض ودمائها الزكية تغطي وجه أبناءها ..ورائحة الدم تفوح على رائحة الارض ...سقطت ربة الأسرة تاركة خلفها عائلة لا تعرف عن مصيرهم المجهول شيء .وهي لا تعرف أن الفاصل الزمني بين الحياة والموت واحد وقريب جداً..قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة كانت تصرخ أبنائي أحضروا لي ابنائي يا أبا طارق امانتك الاولاد اريد أن اخذهم معي حتى اطمأن عليهم من وحوش الدنيا بني البشر الذين لا يعرفون الرحمة والشفقة ..اريد ان اذهب بهم معي الى مكان آمن لا يوجد فيه جوع اوعطش .يسكنه الجميع في جوار ظلال الرحمن نترك هذه الدنيا بنفاقها وخدعها وكذبها وشهاداتها ونترك قصورنا واموالنا يا ابو طارق وها أنا أغادرها برصاصة طائشة لا يزيد وزنها عن الغرامات صنعها الانسان لقتل نفسه.الوداع يا حبيبي الوداع ياتوفيق والى الملتقى بلغ عائلتي وعائلتك اننا اخترنا طريق النجاة من الحرب ولكنه تبين لنا أنه طريق الموت والهلاك .... أبنائي طارق وتيسير امانتك وانت أهلاً لها

..ولفظت انفاسها الأخيرة وعيونها شاخصةً على أبنائها .... .لقد سقطت الشهيدة نادية ومن معها برصاص هذا القناص الأرعن وفارقت روحها الحياة والاستاذ توفيق زوجها لا يعرف ماذا يفعل وهو يحضن اطفاله التوأم طارق وتيسير .صرخ صرخة مدوية يالله لقد قتلت نادية .لقد قتل الشر الخير قتلت شريكتي في الحياة زوجتي الصالحة وبسرعة قام من معه بالانسحاب الى المجمع السكني وهم يسحبون جثث الشهداء معهم كان الليل قريباً من بزوغ الفجر وضعوا الجثث في إحدى الغرف وبدأوا يبحثون عن أي آلة يستطيعون حفر الأرض المخصصة في تلك العمارة كحديقة لكي يدفنون قتلاهم . فوجدوا في العمارة المجاورة آلة حفر متروكة تعود لعمال تركوها منذ سنوات فحفروا الحديقة واودعوا الجثث كأمانة فيها لحين انتهاء الحرب .في هذه الأثناء كان الاستاذ توفيق يمر في حالة من الهستيريا فيهذي تارة ويضحك تارة أخرى وهو غير مصدق أن زوجته قد ذهبت عنه إلى غير رجعة .كان البقية اكثر منه صبرا فذلك الأب دفن ابنه والآخر دفن آخاه وهم مؤمنين بقدرهم هذا القدر الذين جمعهم ولايعرف أحدهم الآخر جمعهم طريق الموت والخطورة وفقدان المحبين.ما أصعب اقدارنا المختفية عنا .الأقدار التي نحملها معنا دون أن نعرفها كالموت والخطورة والمرض والنجاح والصحة والعافية والرزق والعمر المحدود .اتفق الجميع أن يبقوا جميعا في النهار في هذا المجمع وان يتقدمون في السير في الليل وعلى شكل فردي وليس كلهم دفعة واحدة على أمل أن لا يكشفهم القناص الذي يتواجد في بداية المجمع ولايستطيع

ولايستطيع التحرك خوفاً من اكتشافه من قبل الطائرات المسيرة للجيش.أما أبناء الاستاذ توفيق يعتبر اليوم الثاني بالنسبة لهم وهم لم يتناولو شيء من الطعام .كان صراخهم يملأ المكان وهو يبحثون ويسألون عن والدتهم فيصبرهم من معهم بوعود فارغة وبما أن صوت صياحهم في الليل سوف يكون مكشوف للعدو اقترح أحد الموجودين بإعطائهم علاج مسكن حتى ينامو من وقت مبكر ولا يشعرون بمرارة الطريق وما سوف يحدث من مأساة تنتظرهم فهو طريق ملغوم بالقناصين والعبوات الناسفة التي تحصد الأرواح بلارحمة اوخوف اوحياء من أحد ..خيم السكوت على الجميع وكان الوقت قبل مغيب الشمس وتم إعطاء كل الاطفال مادة علاجية مسكنة كان يحملها أحد الآباء الذي استشهد ابنه مع أم طارق والتي تبين أنها نوع من المسكنات الحادة التي تبقي الطفل في نوم عميق .وصلت الساعة التاسعة مساءً وبدأت اول عائلة بالخروج وبعد ما يقارب الساعة تقريباً لم يسمعوا اي إطلاق نار فخرج الاستاذ توفيق وهو يحمل طفلين أحدهم على ظهره والآخر في حضنه ودع قبر زوجته وهولايستطيع أن يقدم لها أي شيء فهو لاحول ولاقوه سار مسرعاً يدعو الله ان يعينه على محنته وبمسافة ليس بالبعيد شعر بوجود دماء تسيل على ظهره فتوقف قليلا فوجد أن ابنه طارق الذي يحمله على ظهره قد اصيب برصاصة غادرة وفارق الحياة وضع أبناءه على الأرض والليل ظلامه شديد والدنيا أصبحت أكثر ظلاماً في عيون الاستاذ توفيق ودماء طارق تغطي الجميع .وبدأ يهيل التراب فوق رأسه وهو يلعن حظه

العاثر ما اصعب الحياة عندما يدفن الأب ابنه بيديه بعد أن عاش محروماً من الذرية .ما اصعبها من لحظات انت وحدك ولايوجد من يقف بجانبك أو يهون عليك مصيبتك .يا إلهي بالأمس دفنت زوجتي واليوم أدفن ابني .كان ينحب بسكوت من الخوف حتى لا يسمعه أحد نظر واذا بجانبه حفرة صغيرة ولكنها عميقة فوضع ابنه فيها وغطاها في التراب وبعض الاحجار الموجودة حوله وحمل ابنه الثاني تيسير الذي كان في سبات عميق وما أن صعد على تلة ترابية حتى بدأ له منظر ضوء عجلات تبعد عنه مسافة اكثر من نصف ساعة ولكن التعب أنهكه وبدأ يسير بخطى بطيئة.وبعد ساعة تقريبا وصل إلى الشارع العام الرابط بين مدينة الموصل والعاصمة بغداد ركض إليه الجنود ورحبوا به وعندما وصلوا إليه ضمهم الى صدرة وبدأ بالبكاء الذي حبسه منذ يومين في صدره ولم يبطل نحيبه الا عندما سمع صوت أحد الجنود وهو يتصل بتلفونه الجوال مع آمر الوحدة ويقول له سيدي لقد لجأ الينا أحد أبناء المدينة وعمله معلم حسب ما يدعي ويحمل معه طفل متوفي نتيجة إصابته بطلق ناري يدعي أنه إبنه ما أن سمع السيد توفيق ذلك حتى صرخ صرخة تدمي القلوب لا مستحيل فهذا تيسير والمقتول طارق لم يفهم الجنود ما يقول وبعد التهدئة تم جلب له قليلاً من الماء فشرب وشرح لهم ما حدث في الطريق وعن اصابة ابنه طارق برصاصة طائشة وأنه دفنه تحت تلة قريبة من هنا ولكنه يبدوا أن الحزن والهموم أفقدته صوابه فدفن ابنه تيسير بدلا من طارق وان الاثنان كانوا تحت تأثير المادة الدوائية المخدرة هرع الجنود إلى

سيارة الإسعاف وابلغوا طبيبهم العسكري في ذلك وبعثوا برقية الى مراجعهم وحصلت الأوامر وأخذوا عدة الحفر والاسعاف وتوجهوا الى مكان الحادث الذي دفن فيه ابنه قبل أكثر من ساعة وعندما وصلوا المكان حفروا القبر فوجدوا الولد قد فارق الحياة فحصه الطبيب داخل الإسعاف وتبين أن وفاته بسبب الاختناق من التراب هنا سقط السيد توفيق مغشياً عليه وفقد الذاكرة والوعي ولعدة شهور رقد في المستشفى الفرنسي الخاص في ناحية حمام العليل والتي تبعد ٢٠ كيلومتر جنوب مدينة الموصل وهذه المستشفيات تم تجهيزها وانشاءها من قبل منظمات دولية لإغاثة اهل الموصل من الجرحى بعد المعارك التي سوف تشهدها مدينة الموصل.وبعد ان تماثل للشفاء افتقد عائلته وعرف أنهم جميعاً اصبحوا في إعداد الموتى وان مدينته تحررت بالكامل وأنه مصاب بفقدان بسيط في الذاكرة.خرج من المشفى ولايعرف اين يذهب ولكن ذاكرته قادته إلى بيت الحاج عبدالله هذا الشخص الطيب الذي ضيفهم في منزله وعند وصوله المنطقة التي يسكنها الحاج شاهد الخراب والدمار قد غير معالم تلك المحلة وبعد أن وصل دار الحاج عبدالله طرق الباب ولم يخرج له أحد وبقي يطرق ويطرق دون جدوى فسأل أحد الشباب الموجودين هناك فأجابه بأنه لم يلاحظ أحد في هذا المنزل منذ تحرير المدينة وربما قد سافر اهلها أو ذهبوا الى المخيمات فطلب من الشاب أن يذهب معه إلى دار ابن الحاج عبدالله الواقعة خلف داره ودخل اليها من خلال الباب الخلفي الداخلي دخلوا الى منزل الحاج عبدالله فوجدوه قد فارق الحياة وهو ساجد فوق سجادته

وجسده قد أصابه التفسخ فصرخ السيد توفيق بأعلى صوته لماذا تركتني ياحاج ابن اذهب الآن.هدأ الشاب من روعته وأبدى له المساعدة وأخذه إلى منزله في الحي المجاور له ..ابلغه أنه ترك سيارته في هذا المنزل فنظر واذا هي ركام حديد أمام المنزل فعرف بأن كل السيارات قد اتخذها العدو خط صد في المعركة.وبعد أن أفرغ الاستاذ توفيق كلامه قام الشاب واتصل بأحد أصدقاءه وهو ضابط في الجيش وموجود قريباًمنهم .وبعد دقائق من غلق الهاتف جاء الضابط بسيارته العسكرية مبدياً تقديم المساعدة للأستاذ توفيق بعد أن قدمه له صديقه الجديد جيران الحاج عبدالله بعدها ذهب الشاب إلى أقرب جامع ليساعدوه في إخراج جثة الحاج عبدالله ويقومون بواجب الدفن في المقبرة القريبة منهم ..اما الأستاذ توفيق والعسكري الضابط الذي عرفه للتو فقد استقلوا سيارتهم وتوجهوا الى المجمع السكني الموجود في اطراف حي المأمون وعند وصولهم مقر المجمع شاهد أنه تحول إلى ثكنة عسكرية فابلغهم السيد الضابط بأنهم لديهم جثة مدفونة في أحد بيوت المجمع السكني ويريدون إخراجها فابلغه آمر الوحدة بأن سيارة الإسعاف قامت بنقل الجثث الموجودة الى الطب العدلي ومن هناك ابلغوهم بأن دائرة البلدية قامت بدفن كل الجثث التابعة لناس مفقودين.زادت حيرة السيد توفيق ومصيبته وتوجه بعدها للوحدة العسكرية التي أخذت جثث أبناءه طارق وتيسير ولكن عاد بخفي حنين ولم يجد جواب افضل من الجواب السابق حيث قامت سيارة الإسعاف بعد أن نقلوه الى المشفى بنقل جثث الاطفال إلى الطبيب العدلي وثم

تسليمهم الى دائرة البلدية لدفنهم ..قدم شكره السيد الضابط الذي لم يقبل تركه وهو في حالة هستيريا وذهب معه إلى الطبيب العدلي وكان مقر دائرة الطب العدلي خارج حدود المدينة وهناك وجد اسماء وصور الآلاف من الضحايا وقد دفنتهم دائرة البلدية في أماكن مختلفة ويصعب عليه ايجاد اي قبر من قبور عائلته فأصبحت قبورهم مفقودة يجهل مكانها . نعم إنه الاستاذ توفيق الذي خرج للهروب من الحرب والقتل ولكنه لا يعرف انه ذاهب إلى طريق الموت الذي أفقده كل افراد عائلته وحتى قبورهم أصبحت مجهولة وهل تم دفنهم في مقبرة واحدة أم أن القدر فرقهم في الدنيا وشتت قبورهم بعد الممات..عاد إلى منزله بعد تحرير المدينة وقبل دخوله المنزل خرج جيرانه يسألونه عن عائلته وعن زوجته ام طارق والأولاد فلم يجيب إلا أنه وقف أمام داره وبدأ يتذكر اللحظات الجميلة التي عاشها مع عائلته بدأ يصرخ لماذا تركتموني يا أم طارق... خرج جيرانه يقدمون له المواساة في هذه المصيبة ولكن الصدمة بفقدان عائلته كانت كبيرة جداً. ولايستطيع حتى التكلم معهم . اجتمعوا حوله والجميع قد أغرقت عيونهم بالدموع كان أحد جيرانه ويدعى ابو حيدر القصاب من أعز أصدقائه فعانقه وهو يقدم له التعازي والمواساة وأبدى استعداده للذهاب معه لانتشال الجثث من تحت الأنقاض ..هنا انتبه السيد توفيق لهذه العبارة وأبلغ صديقه أن دائرة البلدية قد دفنتهم جميعاً..ولكن صديقه ابوحيدر سأله متى هذا الكلام وقبل ساعات من هذا اليوم أتى أحد جيران أهلك وأبلغه أن الجثث مازالت تحت الأنقاض .صرخ السيد

توفيق عن ماذا تتكلم يا ابو حيدر فقال عن جثث عائلة والدك واخوانك وعوائلهم ..هنا سقط السيد توفيق مغشياً عليه مرة أخرى وبعد إفاقته تبين أن أحد جيران منزل والده في منطقة الميدان في الموصل القديمة يأتي يومياً إلى منزله ليبلغه أن جميع أفراد عائلة والده والبالغ عددهم أكثر من عشرين شخص قد لقوا حتفهم في معارك تحرير المدينة وان منزله حل به الدمار بالكامل وكل جثثهم مازالت تحت الأنقاض. أما هو فكان يظن أن جيرانه السيد ابوحيدر القصاب يقصد عائلته الشخصية زوجته أم طارق وأولاده طارق وتيسير ..يا لها من مصيبة جديدة فهو الآن وحده يصارع هذه المصائب وكيف تناسى أهله طيلة فترة رقوده في المشفى ..انها مصائب الدنيا .مصائب الحروب يشيب من مأساتها الطفل الرضيع.. لقد تحررت مدينة الموصل وفقد السيد توفيق كل عائلته وعائلة والده وكل عوائل اخوانه وانطفأت انوار هذه العائلة الموصلية العريقة الى الابد فهل يبكي زوجته أولاده ام والده ووالدته ام اخوانه ..لقد انطفأت شمعة هذه العائلة اطفأتها الحرب بنيرانها الملتهبة ..وفي فتره زمنية قصيرة انتهت عائلة كبيرة ورحلت عن الوجود عائلة الحاج ابو توفيق كانت من عوائل المدينة القديمة المعروفة على مستوى مدينة الموصل ...عائلة قدمت للوطن شهيدين في حرب الخليج الأولى وشهيد بعد أحداث عام ٢٠٠٣ واكثر من عشرين شهيد بعد تحرير المدينة في عام ٢٠١٧ ...فهل رضيت أيها الوطن وانت تأخذ دمائنا الزكية وتجعل الموت يحصد ارواحنا الطاهرة .لم يبقى يسكنك من هذه العوائل

الا السيد توفيق ذلك المعلم التربوي الفاضل وهو يعاني من مرض نفسي شديد كثيف اللحية وملابسه رثة قديمة يبكي على حالته طلابه وأصدقائه الذين يعرفونه وتركض الأطفال خلفه ويظنون أنه من المجانين في الشوارع .كيف لا وهو فعلا من المجانين بضحايا الحرب يتنقل يوميا بين حي المأمون وتل الرمان والمدينة القديمة يقف عند أبواب المعسكرات ويذهب إلى الدوائر الخدمية يبحث عن أهله عسى أن يجد أحدهم وهو يعرف أن الجميع في ذمة الله وتم دفنهم في مقابر مجهولة الهوية...نعم انها الحرب التي تفرق بين المحبين وتحصد أرواح الناس الطيبين ولاتعرف حرمة شيخ اوامرأة وطفل ..الحرب التي يحتفل بنصرها الطبقات السياسية والقادة والحكام ويحصد مأساتها الناس الفقراء وطبقات الكادحين والجنود والأرامل .الحرب التي دفعت بأوزارها خيرة شباب العراق عامة ومدينة الموصل خاصة إلى الموت...الحرب التي ولدت الدمار الشامل والخراب التام في مساكن نصف المدينة وشلت حركة الحياة فيها ...ومن لم يسمع عن اكثر من مليون شخص يعيشون بالمخيمات ونازحين الى المدن الأخرى ...الحرب التي استخدمت فيها كل الأسلحة المتطورة ودمرت كل البنى التحتية للمدينة وقطعت كل الجسور التي تربط الجانبين الأيمن والايسر للمدينة. الحرب التي البست النساء ثوب الحزن بلون السواد وتشرد بها الأطفال وهم يفقدون آباؤهم وامهاتهم ويتعاطون مهنة التسول وألاستجداء بشوارع المدينة وعند تقاطع الإشارات الضوئية لأجل لقمة العيش فقط .الحرب التي دفع ثمنها كل أهالي مدينة

الموصـــل ونواحيهـــا انهـــا الحـــرب الطريـــق الســـريع للهـــلاك والموت وطريق المقابر المفقودة.

.....
.....
.....
.....